مقدمة

يعد المذهب الحسى عند كوندياك خروجاً على القاعدة الفكرية المتعارف عليها فى تاريخ المعرفة الفرنسى، فقد عرفت الفلسفة الفرنسية خلال تاريخها باحترامها للفكر، وتقديسها للنظر والتأمل، وتقديمها للعقل على الحس عملاً بما جاءت به فلسفة ديكارت فى القرن السابع عشر من إعلاء لكلمة العقل، وتقدير للفكر النظرى فنشأت الفلسفة الحديثة فى فرنسا وهى تؤمن إيماناً لا حد له بقدرة العقل على تغيير الكون وتقدم البشرية، ومن فرنسا انطلق هذا التيار الفكرى إلى أوربا وسائر أنحاء العالم.

وبقدر ما كانت معرفة العقل هى نصيب فرنسا من عالم الفكر، فقد كانت المعرفة التجريبية الحسية هى مدار المعرفة فى إنجلترا فمنها صدرت، وفيها اشتهرت، ثم انطلقت إلى جميع أرجاء العالم بوجه عام، وأوربا بوجه خاص. ولما كان تاريخ الفلسفة يتسع ليشمل الفكرة وضدها فليس بمستغرب إذن أن تكون فلسفة كوندياك الحسية فرنسية المنبت بما عرف عن اتجاه الفكر الفرنسى من عقلانية ونظرية، وأن تنمو – على الجانب الآخر- فلسفة باركلى المثالية اللامادية فى المجتمع الإنجليزى المتمرس على التجريب والملاحظة والعمل، وأن يكون التأثير والتغيير، بل معارضة المواقف الإيجابية هما نصيب الفكر الفلسفى[1].

---

(1) عرف تاريخ الفلسفة مجموعة متباينة من ألوان الفكرة، فقد ساد الاتجاه العقلى والتأمل النظرى فى فرنسا، كما نبع الفكر التجريبى الحسى من إنجلترا، فى حين كان الفكر المثالى سمة من سمات الفلسفة الألمانية، بينما كانت النزعة البرجماتية هى السمة البارزة للفلسفة الأمريكية، وقد حمل لواء الفكر فى كل اتجاه منهم= =علماً من أعلام

obeikandi.com

وهكذا فلا غرو أن نجد لكل قاعدة شواذ فقد خرج باركلى بمثاليته اللامادية على العرف الفكرى المتبع فى الفكر الإنجليزى، فى مجتمع ألف التجريب، ودأب على تحصيل المعارف بالحس والتجربة تماماً كما خرج كوندياك بمذهبه الحسى عن تقاليد الفكر الفرنسى فى احترام العقل والفكر.

لقد تزعم كوندياك بنزعته الحسية حركة مادية سادت المجتمع الفرنسى غالا فيها الحسيون فى مذاهبهم فى ظل نزعته الحسية هو ولامترى La Metrie [1]. وربما تكون هذه الحركة قد حدثت كرد فعل لما ساد فى فرنسا من اتجاه للتفكير العقلى، وشغف بالتأمل وتقديس للفكر والنظر، أو ربما تكون قد حدثت كأثر من آثار الحركات الفكرية التى سادت القارة الأوربية فى القرن الثامن عشر، وظهر معها مواقف معارضة.

وعلى هذا النحو عبر كوندياك من خلال مذهبه الحسى عن حسية موغلة، متأثراً فى ذلك بتجريبية الإنجليز كما قرأها عند لوك، وذهب فى ذلك إلى أقصى حد ممكن. ونحن نعلم أن القرن الثامن عشر كان عصر لوك ونيوتن فقد أرجع الأول المعرفة إلى الإدراك الحسى والتجربة، فى حين صاغ الأخير المعرفة فى القوانين العلمية.

وعلى نهج لوك سار كوندياك، بل تخطاه فألغى الفكر، وغمر فلسفته فى الحس إلى أقصى مداها متجهاً إلى ما يتعارض مع تجريبية

الفلسفة ابتداء من ديكارت فى فرنسا، ولوك فى إنجلترا، وهيجل فى ألمانيا، وبيرس فى أمريكا.

(1) La Metrie julien offroy de (1709-1751) طبيب وفيلسوف فرنسى مادى، ولد فى سان مالو، كان صديقاً لفردريك الثانى حاكم بروسيا.

لوك المعتدلة، وكان لوك قد نقد المذاهب السابقة عليه أى المذاهب العقلية لديكارت وليبنتز وغيرهما فيما تصوروه عن وجود الأفكار الفطرية Idees Innees، فأنكرها وأحل محلها الأفكار المكتسبة بالحواس[1]. وجاء كوندياك من بعده مغالياً فى هجومه على المذاهب

(1) يعالج لوك فى الجزء الأول من مؤلفه "مقال فى الفهم الإنسانى" نظرية الأفكار والمبادئ الفطرية (النظرية والعملية) فيرفضها بشدة ويؤكد على أولوية المعرفة الحسية التجريبية، وقد ساق فى أثناء هجومه ونقده لهذه النظرية حجتين يشمل الرد عليهما موقفه من هذا النوع من المعارف وهما: حجة الإجماع، وحجة استخدام العقل، ترمى الأولى إلى أنه ليس هناك ما يسلم به أكثر من القول بوجود مبادئ معينة نظرية وعملية يتفق عليها جميع الناس، ويتصورونها مستمرة وأبدية حملتها أوراحهم عندما أتت إلى العالم، لذلك يجمع كثيرون من الناس على المبادئ والأفكار، ويتفقون فيما بينهم عليها، ولوك يرفض هذه الحجة وينقدها بدعوى أن مسألة إجماع الناس على مبادئ أو أفكار معينة، أو اتفاقهم جميعاً على بعض منها لا يعنى فطريتها أو أنهم ولدوا وقد حملتها أرواحهم وأتت بها من عالم آخر إلى عالمنا، أما الحجة الثانية فترمى إلى أن الناس تعرف مجموعة من المبادئ والأسس الفطرية وتوافق عليها إذا ما بدأوا فى استخدام عقولهم، ويفهم من هذه الحجة وجود الأفكار بالقوة فى العقول وأنها لا تظهر بالفعل إلا عندما يبدأون فى استخدام عقولهم فتخرج هذه الأفكار من حالة الكمون (القوة) إلى حالة الفعل، ويرى لوك أن هذه الحجة تعنى أمرين لا ثالث لهما: الأول هو أن ظهور الأفكار والمبادئ الفطرية موقوف على إستخدام الإنسان لعقله فيدرك هذه المبادئ الأولى، والثانية تعنى أن معرفة هذه المبادئ الأولي لن يتم ما لم يستخدم الإنسان عقله. لكن لوك يرفض هذين الاحتمالين مبرراً رفضه بفرض أن الإنسان لو استطاع أن يكتشف بعض القوانين الضرورية الأولية باستخدام عقله، ثم استنتج بعد ذلك بعض النظريات الملحقة بهذه القوانينن فلن يكون هناك ثمة فرق بين القوانين والمبادئ الفطرية، وبين استنتاجاتها التالية من حيث أن الأولى والثانية وقد نتجت عن طريق اكتشاف العقل واستخدامه لوظيفته وهذا من دواعي الخطأ.=

العقلية ومفنداً لمذاهبهم التى لم تقدم فى نظره جديداً، ولم تعرف أصل الأخطاء أو نشأتها وخص بالذكر ديكارت، وقد أشار إلى ذلك فى كتابه "المذاهب" إلى أن أى معرفة لا تنمو فى أحضان الطبيعة، و لا تمثل ظاهرة أو علة أو معلول تخرج عن كونها فلسفة.

وسوف نعرض فى هذا البحث للمذهب الحسى عند كوندياك. تابع لوك المخلص الذى سار على مذهبه وأدخل نزعته التجريبية إلى فرنسا [1]. باعتباره رائد الاتجاه المادى فى عصره، وواحد ممن أسمهوا فى تأسيس وإثراء المذهب الحسى خلال القرن الثامن عشر.

وسوف يكشف لنا المذهب المستتر وراء واجهة الإحساسات، ببحث المعرفة المستمد من تحولاتها أن مؤسسه فيلسوفاً ذو فكر طريف، وميتافيزيقا جديدة تجمع بين الحس والعقل، كما أنه سيكلوجيًا، منطقياً، ورياضياً، ومؤرخاً، فضلاً عن كونه رجل اقتصاد، وعلم، وفن، نال مذهبه الحسى فى مجتمع ساده المادية شهرة واسعة كادت تدخل فى صراع مع ما خلفته الديكارتية من آثار ملموسة على الفكر الفرنسى فى عصره. وسوف نبين فيما سيأتى عرضاً لحياته، وظروف عصره، ومؤلفاته، وأثر فكره فى نظرية المعرفة، وفى العلم والفن فى عصره.

=Loke, John: AN Eassay Concerning Humaine Understanding , Book (1), ch III sec, P 92 ch, 11, sec 2 P 90, ch II, sec 3 P 39, ch 1 sc 4 P 40.

(1) Encyclopaedia Britannica a new of universal knowledge, William Benton. Volume, 6 Publisher Chicago- London, Printed in U.S.A. 1964.P 275.

openkanal.com